مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ القَلَمِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة القلم

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة القلم

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٧ ﴾

ابتدأت سورة القلم بِمِثْلِ ما ابتدأت به بعض سور القرآن الكريم بالحروف المقطعة، كسورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة العنكبوت وسورة الروم. فبدأت بقوله تعالى ﴿ نٓ ﴾ وهو حرف من الحروف المقطعة، يعجز عن إدراك دلالتها الإنسان، ليقف مذهولاً أمام حرف من الأحرف، لا يعرف عنه شيئاً، وليقف على أسلوب لم يسمع به من قبل، ولم يخطر بباله هذا البناء اللفظي العجيب، مما يدفعه شوقاً لمتابعة ما بعد تلك الحرف المنفرد. وأَمَّا عِلْمُ معناها ومرادها فعند الله تعالى، فهي سِرٌّ من أسرار الله تعالى في كتابه، نؤمن بها ونقرؤها كما جاءت. وهي من الذي لا يُفَسَّر. وتُلتمس فوائده. وقد تم ذكر بعض فوائد ذلك في سورة البقرة ولله الحمد والشكر.

ومن فوائد ذلك ما ذكره القرطبي رحمه الله تعالى: بأنها محك واختبار لمن يؤمن ويُقِرُّ بها كما جاءت، وأما الوقوف على فوائدها، فقال جمع كبير من العلماء: بل يجب أن نتكلم فيها؛ ونلتمس الفوائد التي تحتها[١] ومن فوائد الحروف المقطعة شد الانتباه، قال قطرب عن العرب: أنهم كانوا ينفرون عند سماع القرآن، فلما سمعوا ﴿ الٓمٓ ﴾ و ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم، أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم.[٢] مما يبين أن من أوجه البدء بها هو لشد الانتباه والأذهان لما بعدها من البيان، لما في ذلك من التشويق للمتابعة.

فلما نزلت هذه الحروف المقطعة بقَوا متحيرين، فقد خاطبهم بما لا يفهمون، لِيُقبلوا على استماعه، لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب عنها معناه، فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٠٩/١)

(٢) المرجع السابق (١٠٩/١)

أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، ويكون معلوماً عند المُخَاطب. فهذا الكلام يعم جميع الحروف[١] وهذا يُفيد أهمية التشويق في التعليم، وأهمية لفت الانتباه، وشد ذهن المتعلم والمتلقي والمدعو والموعوظ لما يُراد تعليمه إياه ووعظه وإرشاده ودعوته إليه، أو إخباره به، وإشعاره بحاجته لما سيسمعه، حتى يعلم ما فيه من علم ومعرفة، أو نصيحة، أو غيرها مما يُراد نقله إليه.

بعد أن افتتح الله سبحانه وتعالى سورة القلم بحرف واحد من الحروف المقطعة بقوله عَزَّ وجل ﴿نٓ﴾ لإيقاظ الأذهان وشد الانتباه إلى إعجاز القرآن العظيم، وبما يثبت أنه من عند الله العزيز الحكيم، أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. ثم بعد ذلك أقسم الله تبارك وتعالى بالقلم الذي يُكتب به على الأوراق وغيرها. فقال تعالى ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ وهو شامل لكل قلم يُكتب به الكُتُب من غير تخصيص ولا تعيين ولا تحديد. وبالتالي يشمل القلم الذي يكتب به الناس، ويشمل كذلك القلم الذي كُتِبَ به في اللوح المحفوظ. ولذلك قال بعض أهل التفسير بهذا التنوع. قال مجاهد رحمه الله تعالى: الذي كُتِب به الذكر[٢] قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: فيه قولان: أحدهما: الذي كُتِب به في اللوح المحفوظ. والثاني: أنه الذي يكتب به الناس[٣] وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وأما القلم فهو القلم المعروف، غير أن الذي أقسم به ربنا من الأقلام هو القلم الذي خلقه الله تعالى[٤] وقال القرطبي رحمه الله تعالى: أقسم الله تعالى بالقلم لِمَا فيه من البيان، كاللسان، وهو واقع على كل قلم، مما يكتب به مَن في السماء، ومن في الأرض[٥] وقال السعدي رحمه الله تعالى: وهو اسم جنس، شامل للأقلام التي تُكتب بها أنواع العلوم، ويُسَطَّر بها المنثور والمنظوم[٦] فهو اختلاف تكامل لا تضاد بينها، فلم ينف أحدهما الآخر، بل ورد على سبيل الترجيح، وبالتالي هو شامل لكل قلم يُكتب به من غير تخصيص، فيشمل القلم الذي يكتب به الناس، ويشمل كذلك القلم الذي كُتِبَ به في اللوح المحفوظ. وهذا من فوائد بناء السياق الذي استوعب ذلك الشمول.

وفي هذا القسم من الله تعالى بالنون، وبالقلم، وبما يكتبون إثارة الأذهان والأبصار إلى نعمته عَزَّ وجل بهداية الناس إلى القلم، وتعليمهم ما يقضون به حوائجهم، من تسجيل العقود، والمراسلات، وتوثيق المداينات والمسؤوليات، والتكاليف، والحقوق، وضبط العلم وحفظه، وتناقله ونقله بين الناس بالكتابة والتدوين. حيث

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١/١٧)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/١٤٧)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨/٦٥)

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/١٤٥)

(٥) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٨/١٤٧)

(٦) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٥/٢٨٥)

قال تعالى ﴿ نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴾ فأقسم بالقلم، وأيضاً بنعمة الكتابة ﴿ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴾ أي: وما يكتبون. سواء ما تكتبه الملائكة، أو ما يكتبه البشر. فهو قسم بنعمة الكتابة العظيمة الجليلة التي هي مفردة إنعام الله عَزَّ وجل.

ومن دقائق البيان أن التسطير ورد بصيغة الفعل المضارع المستمر ﴿ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴾ لإفادة استمرار هذه النعمة، وهو ما يتوافق مع حالة استمرار هذا الإنعام. وكذلك ما توافق مع حالة ما تكتبه الملائكة من أعمال بني آدم المستمرة التي لا تنقطع في حياة البشر. فنحمد الله تعالى على هذه النعمة العظيمة الجليلة. اللهم زدنا من فضلك. وفي القسم بالقلم ما يدل على عظيم فوائده، وعظيم إنعام الله تعالى به على عباده، وكثرة منافعه التي تتحقق للناس بهدايتهم للكتابة بالقلم. فإن من أعظم ما كُتِب به هو مصاحف القرآن العظيم، الذي يتناقله المؤمنون بينهم، في حِلهم وترحالهم، ويُعَلِّمُون به غيرهم، فتتناقله الأجيال.

فقد أقسم الله تعالى بهذا القسم الجليل العظيم على أن رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في منأى وبُعد عما وصفه به الأعداء من الجنون. فقال تعالى ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ﴾ ما أنت أيها النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الدين الذي تحمله إلى الناس بمجنون، كما اتهمك الأعداء حسداً واستكباراً من عند أنفسهم. فإنك مُبَرَّأ من تهمة أعدائك لك. فأثبت الله تعالى لنبينا ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم بهذا النفي كمال العقل وسداد الرأي، وعظيم المدح والثناء، والتزكية من رب الأنام.

وقد أفاد قوله تعالى ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ﴾ أن الدين نعمة عظيمة، إذ أن المقصود بالنعمة هنا هو الدين الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من عند ربه عَزَّ وجل، وعلى رأسه القرآن العظيم ﴿ مَآ أَنتَ ﴾ فلست أنت أيها النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ ﴾ الذي هو الدين الذي تحمله للناس. فقد سماه تبارك وتعالى بالنعمة، لأنه أعظم نعمة امتن الله تعالى بها على العباد، فإنه بنعمة الدين تحصل محبة الله تعالى للمؤمنين، وما يترتب عليها من سعادة الدنيا والآخرة. كما تضمن هذا النفي ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ﴾ التهمة من الأعداء، المتعلقة بسبب حملك لهذا الدين. فأفاد ذلك أن أعداءك نسبوا لك الجنون بسبب ما تحمله من هذا الدين، فاعتبروا حمل هذا الدين العظيم ضرب من الجنون. وفي هذا النفي ما يُثبت أنهم هم المتصفون بذلك. نتيجة حَنَقِهم وحسدهم وكبريائهم. فوصفوا الحامل للعلم بالجنون. بما يبين أن الحاسد والمستكبر يُطلِق من الوصف على المحسود ما ليس له به علاقة، وما يتنافى مع الحق والحقائق. وأنه لا يفكر إلا في الانتصار ولو كان بالباطل الظاهر بطلانه. فيخرج بذلك عن سمة الحياء والأخلاق والآداب. مما يبين خطورة الحسد والكبرياء على مسلك من كان ذلك مسلكه. مما يستوجب على الإنسان أن يحذر من الحسد والكبرياء،

ويعالج نفسه منه بالتواضع والانكسار لله تعالى، ولِمَا جاء من الحق. بل وفي جميع شؤون حياته وتصرفاته، بأن يكون المنطلق من ابتغاء الحق، والخضوع والاستسلام له.

وفي هذا القسم بالنون، وبالقلم، وبما يكتبون عظيم المدح والثناء على الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه عَزَّ وجل، وكذلك فيه عظيم منزلة النبي عليه الصلاة والسلام، ورفعة مكانته عند ربه، إذ أقسم بالنون وبالقلم وبما يُكتب به على أن رسوله صلى الله عليه وسلم مُنَزَّه مما رماه به أهل الفسق والكفر.

ثم يزداد التمجيد للرسول صلى الله عليه وسلم بقوله عَزَّ وجل ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: فإن لك أيها الرسول عظيم الثواب والأجر الجزيل الذي لا ينقطع، وذلك جزاءً لِمَا تحملت من أثقال أدائك للرسالة التي أوكلها ربُّك إليك. وقد بدأ تحقيق الوعد من الله تعالى بالتخصيص ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ أنت أيها النبي صلى الله عليه وسلم ﴿لَأَجْرًا﴾ ثواباً وجزاءً ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ غير منقطع وغير محسوب، فهو ثواب متعاظم، لا يستطيع أن يدركه أحد من عظمته. مما يفيد المبالغة التي تعني وصول الأجر إلى أقصى ما يكون عليه من الله تبارك وتعالى.

ثم يزداد المدح والتزكية من الله عَزَّ وجل للرسول صلى الله عليه وسلم، فيقول جَلَّ جلاله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ إنك يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم لعلى أعظم المكارم من المحاسن الْخُلُقية. ليجمع بذلك المدحُ دين الله الإسلام، لأنه دين الأخلاق الذي تمثل به الرسول صلى الله عليه وسلم. فقوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ أي: على دين عظيم من الأخلاق. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: وإنك لعلى دين عظيم، وهو الإسلام[١] أي: أصبح عليه الصلاة والسلام متمثلاً بالقرآن في كل تعاملاته وتصرفاته. وهو الذي قالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لمن سألها عن خُلُقِه عليه الصلاة والسلام، فقالت رضي الله عنها (ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قالت: فإن خُلُق نبي الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن) [٢] قال ابن تيمة رحمه الله تعالى: أما الْخُلُق العظيم الذي وصف الله تعالى به محمداً صلى الله عليه وسلم فهو الدين الجامع لجميع ما أمر الله تعالى به مطلقاً، هكذا قال مجاهد وغيره، وهو تأويل القرآن كما قالت عائشة رضي الله عنها[٣] فقد كان عليه الصلاة والسلام طائعاً لربه، ممتثلاً لِمَا نزل من القرآن. رفيقاً بأمته، صبوراً على أذى غيره له،

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٤٢٩)

(٢) مسلم، صحيح مسلم، برقم (٧٤٦)

(٣) ابن تيمية، مجموع الرسائل الكبرى (١/٢٣٤)

وصبوراً على أداء مهام رسالته، وصادق فيما يقول، ووفي فيما يَعِدُ به من الوعود، وشجاعاً، وصادقاً، وكريماً وسخياً في العطاء، ويؤثر غيره على نفسه، فإنه عليه الصلاة والسلام مسارع إلى مرضاة ربه سبحانه وتعالى، وقد انتفت منه المساوئ، وتباعدت عنه صلى الله عليه وسلم. وفي المقابل قد جمع خصال الخير مع ربه سبحانه وتعالى، ومع الناس أجمعين.

وبعد أن أظهر اللهُ تعالى منزلته ومكانته صلى الله عليه وسلم، وتزكيته من الخبير العليم، ينتقل البيان الكريم إلى البشارة بالنصر على أعدائه، وهزيمتهم التي ستتحقق بهم، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴾ فستعلم وترى أيها الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك سيعلم مخالفوك بالحقائق والنتائج. أي: سيتحقق للطرفين العلم ﴿ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾ يعني: أيكم الذي فتنه الضلال والجنون، وفتنه ما هو عليه من الباطل. وفي هذا بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، ووعيد بأسلوب المعادلة المنصفة، كما قال القرطبي رحمه الله تعالى عن قوله عَزَّ وجل في سورة سبأ ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ قال: هذا على وجه الإنصاف في الحجة، كما يقول القائل: أحدنا كاذب، وهو يعلم أنه صادق، وأن صاحبه كاذب[١] وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: ثم أمره سبحانه وتعالى بأن يخبرهم بأنهم على ضلالة ولكن على وجه الإنصاف في الحجة[٢] وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وهذا اللون من الكلام يُسمى الكلام المنصف، وهو أن لا يترك المجادل لخصمه موجب تَغَيُّظ واحتداد في الجدال[٣] وفي هذا اللون من الاحتجاج، ما يدفع الطرف الآخر للتأمل والتفكر بما أوضحه صاحب الحق من الإنصاف في التأمل والتفكر. وفي هذه المنهجية الربانية من المحاجة، ما يُعَلِّم المؤمن كيف يقيم الحجة على خصمه، ويقرره بخطأ ما هو فيه. وكيف إذا جمع الإنسان ما يماثلها من حجج القرآن العظيم، فيتعلم منها منهجية القرآن الكريم في هذا الفن من المناظرة، وإقامة الحجج والبراهين.

فيقررهم بهذا الأسلوب بأن أحد الطرفين والفريقين: نحن أو أنتم على هدى، والآخر على ضلال بما هو مفتون به. ففي قوله تعالى ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴾ دعوة لهم لانتظار النتيجة، ودعوة لهم للتأمل عن طريق التخويف والترهيب مما سيكون من الأمر والكشف للحقيقة. وقد أفادت دلالة الإبصار ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴾ المشاهدة والمعاينة بأبصارهم للحقيقة عندما يجليها اللهُ سبحانه وتعالى للفريقين. فينكشف لهم من

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤/١٩١)
(٢) الشوكاني، فتح القدير (٤/٣٢٥)
(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٩/١٥٩)

هو المفتون ﴿ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾ الذي أصابه الغرور بما هو عليه. ويشمل هذا ما سيكون من شأن هزيمتهم، ونُصرة الرسول صلى الله عليه وسلم. ويشمل كذلك المعاينة للنتيجة يوم القيامة. فقد شملت دلالة ﴿ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾ العلم بها في الدنيا من خلال الهزيمة للمفتون بالباطل، وكذلك في الآخرة، يوم القيامة، فيظهر الناجي والفائز بالجنة، والمفتون بالباطل الذي يدخل النار، والعذاب المهين.

فهو أسلوب يُعيد الغافل إلى الحقيقة الظاهرة والواضحة بقوتها، والمجردة من كل لبس، مع موافقتها للعقل والنقل بما هو واقع وحقيقة. مما يبين أن هذا الدين هو دين الحقائق، والحجج الواضحة، والبراهين الساطعة، وأنه لا يدعو الناس للحق من غير بيان واضح بحجته ودلائله وبراهينه. ليتبين لكل عاقل أنه دين الله الحق.

وبعد تقرير الله تعالى بنبوة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وتزكيته في دعوته، وفي رسالته التي يحملها، وفي خُلُقه العظيم. وإنذار الكافرين بما سيتبين لهم عن حقيقة الذي هو على الحق، والذي هو على الباطل، وهو المفتون بما هو عليه من جنون التعالي. وبعد ذلك يُرشد سبحانه وتعالى عباده أجمعين إلى أمر قطعي بكمال علمه عَزَّ وجل بحقائق المطيعين، وحقائق المكذبين، فيعاقب الكافرين على ما كان منهم من الكفر، ويرفع شأن المهتدين ويجازيهم بخير الجزاء. فقال تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ فيُعيد سبحانه وتعالى الفريقين إلى كمال علمه، من خلال مخاطبة رسوله صلى الله عليه وسلم، بتقريره الكريم الذي مفاده أنه سبحانه وتعالى هو العليم بكم وليس غيره بأعلم بكم منه عَزَّ وجل، فليس الشأن عائد إلى تزكية أهل الباطل لأنفسهم. بل انتظروا عما سيكون لكل فريق بما يستحق. ليفيد التهديد لأهل الباطل، والبشارة والتأييد والتمكين لأهل الحق. فيقرر سبحانه وتعالى كمال علمه جَلَّ جلاله.

فإن علمه عَزَّ وجل أخص علماً بحالهم مِن ظنون الكافرين الجاحدين الباطلة بأنفسهم. فإن عِلم الله تعالى قطعي بالحقائق على ما هي عليه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ ﴾ بما يفيد ويعني العلم القطعي بالحقائق كما هي عليه، وأيضاً كما ستكون عليه قبل أن تكون. وقد أفاد قوله تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ أفاد الحصر والقصر على أنه سبحانه وتعالى هو الأعلم وليس غيره أعلم منه بما كان، وما سيكون من حال المدعوين قبل أن يكون، سواء ممن يستجيب أو ممن يمتنع، وليس لأحد من العباد العلم بحال أحد من الخلق غيره عَزَّ وجل.

وقد أفرد بالنص والحصر عن علمه سبحانه وتعالى بمن ضل عن سبيله، فلا يشاركه أحد من خلقه في ذلك ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ وبما يفيد التهديد من أن ربكم عالم بضلالتكم، حتى

وإن ادعيتم الحق، فليس الشأن قائم على الادعاء، بل قائم على الحقائق. كما أنه قد نص بعده على حصر علمه كذلك بالمهتدين ﴿ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ فهو يعلم بأن محمداً صلى الله عليه وسلم، وأصحابه هم المهتدين. وأن رميكم لهم بالبطل لا يزيل عنهم الحق والهدى، وأن ادعاءكم لأنفسكم الحق لا يزيل عنكم الباطل. وفي ذلك إبراز وإظهار لحال الفريقين والصنفين من الناس بالتنصيص والتخصيص، بأن علمه سبحانه وتعالى متحقق بهم جميعاً، وكذلك لما سيحدث ويكون قبل أن يُوجد ويكون.

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۢ بِنَمِيمٖ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾

وبعد أن حَذَّرَ تبارك وتعالى الكافرين بكمال علمه بمن ضل عن الهدى الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم، وعلمه بمن هو على الهدى الذي أنزله جَلَّ جلاه، وأن رميكم لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بالباطل لا يزيل عنهم الحق والهدى، وادعاءكم لأنفسكم الحق لا يزيل عنكم الباطل. وبعد ذلك البيان الكريم يوجه ويحذر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون تبع له، من التأثر بدعوى المشركين للمسلمين للانخراط في مداهنتهم. فقال تعالى ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ فلا توافقهم فيما يطلبون منك أيها الرسول، لأنهم لن يطلبوا إلا ما يوافق شركهم وكفرهم. وهو كذلك نهي تحذير للمؤمنين في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم. لتكون قاعدة يسيرون عليها.

ثم يكشف سبحانه وتعالى مراد المكذبين، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ﴾ يتمنون لو أن تلين لهم قليلاً فلينون لك قليلاً. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لو ترخص لهم، فيرخصون، وقال مجاهد: تركن إلى آلهتهم، وتترك ما أنت عليه من الحق[١] وهو نهي تنبيه وتحذير من خداعهم. ثم يتدرج التوجيه الكريم من الله العزيز العليم إلى القطع بذلك مع كل كاذب. فقال جَلَّ شأنه ﴿ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ﴾ فلا تُطع أيها الرسول صلى الله عليه وسلم كل مُتصف بكثرة الحلف والأيمان الكاذبة الفاجرة. وهو المكثار في الشر. فقد وصفه الله تعالى بالمهين ﴿ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ﴾ وهو الحقير والدنيء، الذي يمتهن الحلف بالأيمان وهو كاذب، وإنما مراده تحقيق مآربه بالفجور. لتعطي المؤمنين قاعدة ثابتة، في أن كل من اتصف بكثرة

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٤٣٠)

الأيمان الفاجرة فإنه مخادع، فاحذروا أن تقبلوا منه شيئاً من أيمانه فتصدقوه وتطيعوه، وتتابعوه. لأن الأيمان الفاجرة دليل على حقارته ودناءة أخلاقه، وعظيم فجوره.

ثم يزداد الوصف لحال هذا الفاجر المهين، فيقول تبارك وتعالى ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴾ فهو يحمل صفتين ذميمتين في الإفساد بين الناس. أحدهما: أنه ﴿ هَمَّازٍ ﴾ والهماز هو العياب الذي يهمز غيره بالعيوب. والصفة الثانية: ﴿ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴾ أي: المغتاب الذي يمشي بين الناس بالنميمة، بنقل الكلام الفاسد المفسد بين الناس، بُغية الإفساد بينهم. ومن صفاته كذلك أنه ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ فإنه ممتنع عن بذل الخير، وكذلك ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ يعتدي بظلمه على غيره. فهو شخص ﴿ أَثِيمٍ ﴾ أي: فاجر، يُلحق بنفسه الإثم، ولا يبالي بذلك. وكذلك من صفاته أنه ﴿ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ أي: أنه بعد كل ما سبق من تلك الصفات الذميمة القبيحة فإنه متصف بشدته ومبالغته في البطر، فهو ﴿ عُتُلٍّ ﴾ أي: الشديد ﴿ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ أي: الشديد الأشر في نفاقه، والغليظ الجافي في تعامله. وكذلك أنه ﴿ زَنِيمٍ ﴾ ليس له أصل في الخير، فهو متخلق بأقبح الأخلاق، فهو معروف بالشر، كما تُعرف الشاة بزنمتها. فأصبح ذلك الأشر له علامة، وهي: الزنيمة.

وكذلك من صفاته القبيحة ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ فإنه إن كان صاحب خير وكثرة في المال والبنين فإنه يتفاخر ويتعالى بها، فإنه ليس بهذه النعمة في تواضع وكرم وسخاء، بل يزداد بها لؤماً وجحوداً للخير، ومكابرة في الشر والأشر. وكذلك من صفاته ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وإذا سمع آيات القرآن تُقرَأ عليه، وصفها بأنها من الأباطيل والترهات. فلكثرة ما أعطاه الله تعالى من المال والبنين فإنه متفاخر، حتى بلغ به الأمر أنه إذا سمع آيات القرآن تُقرَأ عليه، وصفها بأنها من الأباطيل والترهات، والغوامض، وأنها مأخوذة من كتب المتقدمين من أهل القصص والفلسفة ونحوها، وذلك على سبيل التهكم والتندر، أي: أن الذي تقولون بنزوله من عند الله تعالى هو من كتب المتقدمين. وبالتالي ينكر نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتهمه بالكذب عليه الصلاة والسلام.

وقد ذكر بعض أهل التفسير أنها نزلت في بعض عتاة المشركين، كالوليد ابن المغيرة، والنظر بن الحارث. وهو توصيف عام يشمل أولئك المعنيين بأعيانهم، وكل من اتصف بهذه المواصفات، مما يفيد الحذر ممن اتصف بهذه الأوصاف الذميمة. فقد وصفت الآيات بالتحليل الدقيق مواصفات من يجب الحذر منهم من أهل الشر والباطل.

ثم يخبر الله تعالى عن نوع من العقوبة لمن اتصف بهذه الصفات البذيئة، فقال تعالى ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ سنجعل له علامة فارقة شائنة على وجهه، فيُعْرَف بها. والمقصود بالخرطوم: الأنف. سنشينه بشائنة. قال الطبري رحمه الله تعالى: سنبين أمره بياناً واضحاً، حتى يعرفوه، فلا يخفى عليهم، كما لا تخفى السمة على الخرطوم[1] وقال أبو العالية، ومجاهد: أي: على أنفه. ونُسَوِّد وجهه في الآخرة. فَيُعْرَف بسواد وجهه. والخرطوم: الأنف من الإنسان. وقال الفراء: وإن كان الخرطوم قد خُص بالسِّمَة، فإنه في معنى الوجه، لأن بعض الشيء يُعبر عن الكل[2] وقال قتادة: سنلحق به شيئاً لا يفارقه[3] ومن فوائد عموم البيان الكريم أن الخرطوم يخص الأنف ليعم به الوجه، وما يميزه من القبح. ولا يمنع هذا أن تكون هذه الصفة جامعة بين الآخرة بتسويد وجه كُلِّ من اتصف بهذه المواصفات، أو بغير ذلك من السمات، وكذلك في الدنيا بعلامة يُعْرَف بها. فتبقى سمة لاصقة به طيلة حياته، وبعد مماته. مما يبين عظيم قدرة الله تعالى، والحذر من هذه الصفات البغيضة، ومن أصحابها، المتصفون بها، حيث تخلقوا بأشنع الأخلاق مع دين الله تعالى، وعموم التعامل مع العباد.

﴿ إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

بعد أن حذر تبارك وتعالى ممن اتصف بتلك الصفات الذميمة التي كثرت في تنوعها من الفجور في الأيمان، والبخل، بمنع مد النفع للغير، والمفاخرة والفجور، والتعدي بالظلم للغير، بما يُلحق الإثم بنفسه ولا يبالي بذلك، مع التكذيب بالقرآن ونعته بأنه من أساطير الأولين. فبعد هذا البيان التحذيري للمؤمنين ممن هذه صفاتهم، يخبر سبحانه وتعالى بأنه قد ابتلى هؤلاء الفجرة المكذبين بدين الله تعالى بمثل ما ابتلى به أصحاب الجنة. فقال تعالى ﴿ إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ إنا اختبرنا وابتلينا مشركي

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/١٧٠-١٧١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٨/١٥٥)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨/٦٩)

مكة بمثل ابتلائنا واختبارنا لأصحاب الجنة ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ ﴾ أي: امتحنَّاهم واختبرناهم ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ بمثل ما اختبرنا وامتحنا أصحاب البستان ﴿ إِذْ أَقْسَمُواْ ﴾ حين حَلَفُوا الأيمان المغلظة ﴿ لَيَصْرِمُنَّهَا ﴾ أي: لنقطف ونحصد ثمار جنتنا وحديقتنا ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ أي: نشرع في حصدها مبكرين، حين يطلع الصباح. فإذا أصبح عليهم الصبح بَكَّرُوا في حصد ثمار بستانهم، بما يفيد الاستعجال في الحصد ﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ ولا يتركون منه شيئاً إلا وقد حصدوه وجمعوه من أشجار حديقتهم ومزرعتهم، حتى لا يبقى للمساكين شيء من ثمارها. فلا يجد المساكين شيئاً من الثمار حين يأتون إليهم. ليعودوا منكسرين، خالين اليدين. وذلك طمعاً وبخلاً وحسداً منهم لغيرهم.

قال قتادة رحمه الله تعالى: كانت الجنة لشيخ، وكان يتصدق، فكان بنوه ينهونه عن الصدقة، وكان يُمسك قوة سنته، ويُنفق ويتصدق بالفضل، فلما مات أبوهم غدوا عليها، فقالوا: لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين[1] بخلاً بما أعطاهم الله تعالى، فكان المكذبين من كفار قريش مثل أصحاب الجنة، حينما قال تعالى في وصفه عنهم فيما سبق ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ فهو ذا مال وبنين، مثل أصحاب الجنة. لكنه بخيل ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ ممتنع عن بذل الخير، ومعتد بظلمه لغيره، وفاجر في تعامله، فَيُلحق بنفسه الإثم، ولا يبالي بذلك.

ثم يستمر الإخبار من الله تعالى عن أصحاب الجنة، وما حاق بهم من الله تعالى قبل أن يصبحوا، وقبل أن يشرعوا بإنفاذ ما تشاوروا عليه، بأن يغدوا على حرثهم فيصرمونه صباحاً. فقال تعالى ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ فأرسل الله تعالى على هذه الجنة آفة مِنهُ جَلَّ في علاه، وهم في سبات نومهم ليلاً، فأهلكت جنتهم. وقد أفاد قوله تعالى ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ ﴾ أن الله تعالى لم يصف نوع هذا الطائف، وكيفيته، ليكون أقوى إنذاراً وموعظة من الله تعالى لعباده. ولِيُظهر جَلَّ شأنه قوته وقدرته، وتعدد جُنده، وأن كل شيء هو جُند له عَزَّ في علاه، وأنه على كل شيء قدير. لتعطي الدروس والمواعظ لكل بخيل، مناع للخير عن غيره. ولبيان مخاطر البخل، والذي ضده السخاء والعطاء من فضل الله تعالى للمحتاجين، وأياً كان نوع العطاء، وماهية النعمة. فإن الملك لله تعالى، وهو الرزاق الكريم. ولإفادة أن الله تعالى قد يختبر من بسط ومَدَّ له في رزقه سبحانه وتعالى الرزاق الحكيم.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧٢/٢٣)

وكذلك من قوة الموعظة والتحذير للعباد أن أظهر عَزَّ وجل هذا الطائف بأنه مقصود منه عَزَّ وجل لجنتهم ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ فنسبه إليه جَلَّ جلاله ﴿ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ لبيان السرعة في الاتلاف، حتى يدرك البخيل أن الله تعالى قد يأخذ ويمحق ما أعطى في طرفة عين. كما أن في هذا بيان بأن للنية السيئة أثرها بمحق البركة، وأنها تهلك الخير وتُردي به. وأن الصدقة من الرزق والنية الصالحة تحفظ الأرزاق، وتزيده بركة ونماء.

ثم وصف تبارك وتعالى حال الجنة بعد أن طاف عليها الطائف الذي أرسله الله تعالى لتلك الجنة، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾ أي: أصبح البستان متآكل، كالمحروق الأسود. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: فيها ثلاثة أقوال: أحدهما: كالرماد الأسود. قاله ابن عباس رضي الله عنهما. والثاني: كالليل المسود. قاله الفراء. وكذلك قال ابن قتيبة: أصبحت سوداء كالليل، محترقة. والليل هو: الصريم. والصبح أيضاً: صريم، لأن كل واحد ينصرم عن صاحبه. والثالث: أصبحت وقد ذهب ما فيها من الثمر، فكأنه قد صُرِم، أي: قُطِع، وجُدَّ. حكاه ابن قتيبة أيضاً[1] فأفاد ذلك أن الطائف الذي طاف عليها بأمر الله تعالى قد أحرقها وأبادها، فكأنه قد صُرِم، فليس فيها ثمر، وكذلك اسودادها، وكأنما تم حرقها. فلا حياة فيها. مما يبين قوة عقوبة الله تعالى وسرعتها إذا حلت، فهي أسرع من أن يتحرك الإنسان لينال مراده وإربه من الشيء. مما يُعَلِّم الإنسان كيف هي قوة الله تعالى، وكيف يجب أن يتعامل العبد مع ربه فيما أنعم به عليه. ومن بلاغة البيان أن ورد وصف حالها بكلمتين فقط ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾ أي: أصبح البستان متآكل، كالمحروق الأسود.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى وصف حال مالكيها. وهم لا يعلمون بما حصل لجنتهم. فقال تعالى عنهم ﴿ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴾ أي: فبعد أن أصبحوا أخذ بعضهم ينادي بعضاً حتى يجتمعوا من أجل أن يصرموها ويحصدوها ﴿ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴾ هيا، لنبكر في حصد الثمار إن كنتم قاطعين لها كما تشاورنا واتفقنا ليلاً. وقد أفاد هذا النداء منهم لبعضهم البعض الاستعجال. وأنهم قد تعاقدوا باتفاق صارم لصرم الثمار. وقولهم لبعضهم البعض ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴾ المبالغة في الحث، والاستعجال لتحقيق مرادهم من الصرم مبكراً، قبل مجيء المساكين. فهم يتنادون وما علموا أن قدرة الله تعالى أسبق وأقدر، فقد سبقهم اللهُ تعالى بقدرته العظيمة. مما يُعَلِّم الإنسانَ أن الله تعالى إذا أراد شيئاً قال له كن، فيكون كما أراد، في أقل من طرفة عين.

---

(1) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧١/٨)

ثم يخبر الله تعالى عن هيئة خروجهم، ومسيرهم إلى جنتهم. فقال تعالى عنهم ﴿ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ﴾ فذهبوا منطلقين إلى جنتهم ﴿وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ﴾ يتسارُّون بالكلام الخفي فيما بينهم للتشاور، بحيث لا يسمع حديثهم أحد، وحتى لا يراهم أحد، فيمشون في سكون، من أجل إخفاء أنفسهم عن غيرهم. قال القرطبي رحمه الله تعالى: وقيل: كان أبوهم يخبر الفقراء والمساكين، فيحضروا وقت الحصاد والصرم[1] وكان مضمون كلامهم الذي يتسارُّون به ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ﴾ حتى لا يدخل عليكم في هذا اليوم أحد من المساكين، فيشاركنا في الأخذ من حصاد مزرعتنا. لأنهم يريدون الاستئثار بجميع ثمارها. وهذا من قوة بخلهم، وحسدهم من أن ينال غيرهم معهم من المحتاجين.

ثم يخبر الله تعالى عما كانوا عليه من الهمة والجدية التي كانوا يحملونها في نفوسهم. فقال تعالى عن حالهم ﴿ وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ﴾ فذهبوا على قصد وإرادة وقدرة قوية في داخل أنفسهم ﴿عَلَىٰ حَرۡدٖ﴾ على قدرة وعلى جِدَّة مما اجتمعوا عليه من الأمر والشأن ﴿ قَٰدِرِينَ ﴾ متمكنين من جَنْيهم لثمار جنتهم، وبالتالي قادرين على أن لا يكون للمساكين حظ ولا نصيب من ثمار جنتهم. مما يكشف الحالة النفسية القوية التي كانوا عليها، مُعتَقِدين أن أمورهم تسير وفق مرادهم الذي خططوا ونظموا له أمرهم. فقد بلغوا غاية الجدية والعزيمة في نيلهم لمرادهم.

ثم يكشف الله تعالى عن حالهم عندما وصلوا إلى جنتهم، وما كان من قوة أثر المفاجأة لِمَا رأوا من حال جنتهم ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾ فلما رأوا جنتهم بما هي عليه من الحرق أنكروا هيئتها، فاعتقدوا أنهم أخطأوا في الطريق، ووصلوا إلى غيرها. فقالوا ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾ إنا قد ضللنا طريق جنتنا، فإنها ليست بهذه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: قد سلكنا إليها غير الطريق، فتهنا عنها[2] ثم أكد بعضهم لبعضهم: بأن الأمر ليس أنهم أخطأوا وضلوا الطريق، بل عقوبة لهم من ربهم العزيز الحكيم. فقال الله تعالى أنهم قالوا ﴿ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ﴾ أي: حُرمنا جنتنا بسبب عزمنا وإرادتنا بأن نمنع المساكين من ثمارها وخيرها. وبالتالي عَدَلُوا عن قولهم: أنهم تاهوا عن طريقها إلى أن الله تعالى قد عاقبهم بما كان من نيتهم ومرادهم الذي أضمروه بينهم، وتحركوا بالعزم على ألا ينال المساكين من ثمارها شيئاً. فهو اعتراف بعد أن فاتهم الذي فاتهم من خير بستانهم.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥٨/١٨)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٣٣/٤)

ثم يخبر الله تعالى بما قاله لهم أعدلهم وأخيرهم ﴿ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ فقد أرشدهم أعدلهم وأخيرهم وهو المقصود بدلالة أوسطهم ﴿ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ ﴾ فقد أرشدهم إلى الطريقة والسبيل الأسلم الذي كان يلزمهم قبل شروعهم في مرادهم ﴿ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ ألم أخبركم بأنه كان يلزمكم تسبيح ربكم سبحانه وتعالى. مما يفيد أن هذا الأخير والأعدل فيهم قد سبق وأن نصحهم بذلك، ولم يأتمروا بمشورته ﴿ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ ﴾ سؤال تقريري، يقررهم بما كان من نصحه لهم، وما كان من تركهم وتجاهلهم لِمَا نصحهم به. وقوله ﴿ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ إرشاد لهم بالأولى الذي يحفظ لهم به الخير. لو سبحتم الله تعالى بذكره لهداكم ووفقكم بأن لا تبادروا إلى منع الإحسان عن المساكين. وقد شمل معنى التسبيح عدداً من الدلالات المتضافرة. فعن مجاهد رحمه الله تعالى أنه: الاستثناء[١] أي: أن يقولوا: إن شاء الله تعالى. وقيل: هلا تسبحون الله، أي: تقولون: سبحان الله، وتشكرونه على ما أعطاكم. قال النحاس: أصل التسبيح التنزيه لله عَزَّ وجل. وقيل: تستغفرونه من فعلكم، وتتوبون إليه من خُبث نيتكم. فإن أوسطهم قال لهم حين عزموا على ذلك، وذكرهم انتقامه من المجرمين[٢] فعليكم أن تسبحوا الله تعالى وتشكرونه على ما أولاكم بهذا الإنعام. كما أن دلالة الاستثناء بالقول: إن شاء الله هو تعظيم لله عَزَّ وجل، بتفويض الأمر لله تعالى، فلا أحد يمكنه فعل شيء إلا أن يشاء الله. كما يفيد هذا: بأنكم لو سبحتم الله تعالى بذكره لهداكم ووفقكم بأن لا تبادروا إلى منع الإحسان عن المساكين. مما يُعَلِّم أهمية ذكر الله تعالى بعموم دلالات التسبيح، فإنه مفتاح للخير، وحفظ للنعمة من الزوال، وأن في التسبيح تذكير للمؤمنين بما يجب عليهم من الخير، ومنها الصدقة.

وهنا تجاوبوا مع ما نصحهم به أوسطهم لَمَّا رأوا عقوبة الله تعالى بهم ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ فسبحوا الله تعالى ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ ﴾ نزهنا ربنا عما لا يليق به تبارك وتعالى. وأقروا على أنفسهم بالظلم ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ وذلك بمنعنا المساكين من فضلك يا ربنا. وهنا حصل اللوم والعتاب لأنفسهم ﴿ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ﴾ فتوافقوا على الاعتراف بذنوبهم، حتى أقبل بعضهم على بعض في العتاب من منعهم للمساكين ﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴾ فبدأوا بمشاعر الخوف من الله تعالى ﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ ﴾ يا

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨٢/٢٣)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥٩/١٨)

هلاكنا، ويا عذابنا من الله ربنا سبحانه وتعالى بسبب ما كان مِنَّا. ثم أكدوا اعترافهم بالظلم ﴿إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ لقد كنا متجاوزين في الظلم للمساكين إلى درجة الطغيان، الذي هو مجاوزة الحد وتعديه، بما يفيد المبالغة في ذلك. فيا ويلنا ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾ بسبب ظلمنا للمساكين الذي بلغ وتجاوز إلى الطغيان، فتحقق بذلك ظلمنا لأنفسنا بأن أوردناها العقوبة والهلاك.

ثم انتقلوا إلى الرجاء في الله تعالى ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ فاعترفوا بظلمهم، فأخذوا يتوسلون الله تعالى بقوة الرجاء ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ نسأل الله تعالى أن يرزقنا بخير من هذه الجنة التالفة ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ فإننا راجعون إلى ربنا بطاعته وامتثال أمره. ولا ريب إن صدقوا وامتثلوا لربهم. فإن الله تعالى تواب رحيم.

ثم يخبر الله تعالى بأن هذا عذاب الدنيا الذي قد نال من مَنَع حقوق المساكين عند الأغنياء، فعاينه أهل هذه الجنة، فقال تعالى ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي: وبمثل تلك العقوبة نعاقب في الآخرة بالأشد والأنكل لمن كفر بإنعام ربه عليه ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ فإن عذاب الآخرة أكبر من هذا العذاب الدنيوي، فإن شعرتم بحرارته ومرارته، والحسرة على ما كان منكم، فإنه في الآخرة أكبر وأشد ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ لو كانوا مدركين لذلك، وأيضاً لو كان الْمُخَاطَبُون من أهل الشرك والكفر يعلمون ويدركون هذا الأمر. مما يفيد أن من عَلِم بهذا وجب عليه الطاعة، والابتعاد عن معصية الله تعالى. وأن عقاب الله تعالى في الآخرة أشد وأنكل من عذابه في الدنيا. بما يفيد فليعتبر أهل الدنيا بما يرونه في غيرهم أو في أنفسهم من العقوبات التي تحل بأهل المعصية.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

بعد أن ضرب الله تعالى المثل لأهل الطغيان بأصحاب الجنة، ينتقل السياق الكريم من الرحمن الرحيم إلى بيان ما أعده لعباده المتقين. فقال تعالى ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ إن للمتقين منزلة وكرامة عظيمة عند ربهم، بأن يدخلهم الجنات التي يتنعمون فيها نعيماً دائماً لا ينتهي أبداً. وقد وردت الجنة بصيغة الجمع، بما يفيد الكثرة. كما أسماها ربنا تبارك وتعالى بالنعيم ﴿ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ التي تفيد أنها نعيم أبدي، وسرمدي لا ينتهي. وقد انتفى منها وعنها جميع المكدرات. وأن هذا خاص بالمتقين. وهم الذين يخافون الله تعالى، ويرجون رحمته، فيبتعدون عن المعصية، ويسارعون للطاعة والامتثال، وإذا اعترفوا ذنباً سارعوا للتوبة والمغفرة. والمتقين ربهم هم الذين امتلأت قلوبهم بالتقوى، فلا يراقب أحدهم إلا الله تبارك وتعالى، حتى وإن لم يشاهده أحد من الخلق، فإن رقيبه هو الله جَلَّ جلاله وليس العباد. فمن خوف المتقين وإجلالهم لربهم تبارك وتعالى فإنهم خاضعون، خائفون، ومتذللون لربهم عَزَّ وجل. ليدل على كمال الذل والطاعة والخوف من الله تعالى. فالمتقين هم أصحاب القلوب الممتلئة بالخوف من الرحمن أينما حلوا وكانوا، وفي أي شيء كانوا، فهم يهابون ويخافون ربهم عَزَّ وجل أينما كانوا وحيثما حلوا وارتحلوا، وإن لم يراهم أحد من الخلق. وفي نفس الوقت يطمعون في رحمة الله تعالى في الدنيا وفي الآخرة.

ثم يخبر الله تعالى عن كمال عدله بسؤال استفهام، يستنكر فيه التسوية بين المسلم والكافر، ويقرر به أن جزاء المتقين مضاد ومخالف لجزاء المجرمين. فقال تعالى ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ هل تعتقدون أيها الكفرة أن يساوي ربكم بين ﴿ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ الذين استسلموا لربهم بالطاعة، والخلوص من الشرك، فيجعلهم ﴿ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ الذين ارتكبوا أعظم الجرائم وهو الكفر. فسماهم بالمجرمين، والمجرم هو من ارتكب الفظيع من الفعل والقول، والكفر هو أعظم جرم يرتكبه الإنسان، لأنه يقود إلى كل جرم من الأفعال والأقوال العظيمة في الشناعة والإثم. فقد كفروا بآيات الله تعالى وحججه وبراهينه. وهو سؤال يفيد التوبيخ واللوم والتهكم والتخطئة لمن كان هذا اعتقاده. وبما يفيد الزجر الذي يستدعي التأمل والتعقل. وبما يفيد كمال عدل الله تعالى، وأنه قد أعد للمجرمين من العذاب ما يناسبهم، وأعد للمؤمنين جنات النعيم.

ومن دقائق البيان أن تم تسمية أهل الطاعة بالمسلمين، لما في دلالة ﴿ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ من الاستسلام والطاعة والامتثال والانقياد. وسَمَّى الكافرين بالمجرمين، بما يناسب حالهم من الطغيان. وأورده سبحانه وتعالى بصيغة الاستفهام الاستنكاري الذي يعيدهم إلى التأمل والتفكر في الحكم الجائر بالمساواة بين الطائع المستسلم لربه، وبين من ارتكب أفظع الذنوب وهو الكفر.

ثم يزداد التوبيخ للكفرة المشركين، باستفهام إنكاري لحكمهم الْمُبَاعِد والمناقض للحق، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ ما بكم؟ ما الذي حصل لكم؟ لتحكموا بهذا الحكم الجائر، بالتسوية بين المسلمين والمجرمين. فما الذي أنتم عليه من الحكم؟ فتحكمون بهذا الحكم الأعوج. بما يفيد: هل جعلتم الجزاء تحت حكمكم الناقص؟ وكأنكم مُفَوَّضُون في الحكم. ويدل هذا التوبيخ على أنهم في سجالهم مع المؤمنين يفاخرون بأنفسهم وأعمالهم. فيوبخهم الله تعالى على حكمهم، وكأن الشأن والأمر عائد إليهم. مما يبين أن مِن مخاطر النفس أن يتوهم الإنسان في انحرافه بأنه على حق. فيحكم بنفسه وهواه على نفسه وعلى غيره بما يهوى ويحب. بينما الحقيقة أن الحكم لله تعالى، بناء على منهجه الذي أنزله في كتابه القرآن الكريم، وسنة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

ثم يتدرج بهم الخطاب إلى مستند آخر، فيما إن كان عندهم ما يعتمدون ويستندون إليه من الكتب الربانية في أحكامهم. فقال تعالى ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ أو أن لكم كتاباً مُنَزَّلٌ من ربكم؟ فتقرؤون ما فيه من العلم، فإن كان الأمر كذلك ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ فلكم في هذا الكتاب ما يجعلكم تتخيرون من الأحكام التي تناسبكم. سؤال تعجيز يسير بهم إلى الاعتراف بأن أحكامهم ليست بناء على كتاب من ربهم. لأنه ليس عندهم كتاب من الله تعالى. مما يبين أن ليس عندكم مستند من خالقكم سبحانه وتعالى تعتمدون عليه، وإنما تعتمدون في أحكامكم على أهوائكم الباطلة. وهذا البيان هو تدرج في إيصال المجرم إلى الاعتراف ببهتانه وكذبه، وإيصاله إلى الاعتراف بالخطأ، وأنه على ضلال. مما يفيد ويبين قوة المحاجة، وأن دين الله تعالى بناء على ما يكون من الله تعالى، وليس بناء على الآراء الباطلة التي ليس لها مستند من رب العالمين.

ثم ينتقل بهم البيان الكريم في الاحتكام والمحاجة إلى كبتهم وتكبيتهم بسؤال آخر ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ أو أن لكم عهود ومواثيق على ربكم قد استوثقتم بها ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ ﴾ وهي العهود والمواثيق ﴿ عَلَيْنَا ﴾ أي: على ربكم ﴿ بَٰلِغَةٌ ﴾ أي: مؤكدة بالله ربكم سبحانه وتعالى. وقد دلت وأفادت دلالة ﴿ بَٰلِغَةٌ ﴾ التناهي في هذه العهود، فبلغت مبلغاً من الصحة لا يمكن نقضه أو الشك فيه.

فهل لكم عهود ومواثيق على ربكم قد استوثقتم بها ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ بأن لكم ما حكمتم به لأنفسكم في الدنيا بها إلى يوم القيامة، أي: مؤكدة ومُلزمة لكم في وجوبها إلى حين يوم القيامة، فلا تخرجون عنها. فهو سؤال يحصرهم في جهلهم المنافي للحقيقة التي يعرفونها تمام المعرفة، من أن ليس عندهم مواثيق على ما هم عليه من الأحكام لأنفسهم، كما ليس عندهم كتاب من ربهم بذلك.

ثم يستمر كبتهم، ومحاصرتهم فكرياً بقوله تعالى ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ فإن كان الأمر كذلك، فلكم ما حكمتم به، بما يفيد: فإن لم يكن الأمر كذلك فراجعوا أنفسكم، وأطيعوا رسولكم صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ فإن لكم بما تحكمون، والأمر والشأن ليس كذلك. فإنه في كلا الحالتين أنتم فاقدون لأي مستند تعتمدونه في الحكم لأنفسكم، لا من كتاب، ولا من مواثيق. وبالتالي فليس هناك إلا أمراً واحداً، وهو أنكم قوم بهت، تحكمون لأنفسكم بما تشتهون، وتتجرؤون على ربكم، وبالتالي أصابكم الغرور. فراجعوا أنفسكم، وأطيعوا رسولكم صلى الله عليه وسلم. مما يبين أن الإنسان قد يتدرج في الباطل شيئاً فشيئاً حتى يتوهم، فيرتدي ويلبس رداء الباطل ويشَرّعه في حياته وفكره وعقله، وينطلق في آرائه وتفكيره من خلاله. مما يفيد التحذير من تلك المغالطات الباطلة.

وقد استهل السياق بيانه بحرف ﴿ أَمْ ﴾ الذي أفاد وأعطى دلالة الاستفهام الإنكاري لفرضية أن عندهم كتاب، أو أن عندهم مواثيق من الله تعالى بما حكموا به لأنفسهم، وبما حكموا به على الحق فنعتوه بالباطل. وفي ذلك تحليل لأوجه ما هم عليه من الطغيان في إصدار الأحكام المضادة للحق الواضح المبين. وفي هذا التحليل دليل على عمق القرآن الكريم في أساليبه، ومحاوراته، وفي تفتيت ما يزعمون من الافتراء؛ وما وصفوا حالهم به، وما هم عليه من التمنع وإصدار الأحكام الجائرة الكاذبة. فكشف الله تعالى حالهم بأدق البيان الذي يكشف لهم خطر وخطأ ما هم عليه. ويزيل الأوهام، وما قد يدور في القلوب والنفوس من الخفايا، وذلك من أجل إظهار بطلان كفر الكافرين، وأنه لا شيء يمنعهم عن دين الله تعالى إلا طغيانهم وشهواتهم، والحسد والاستكبار.

كما أفاد نهج السياق الرباني وتسلسله البياني أن منهج الله تعالى قائم على المحاجة بالدليل والبرهان، وأنه قد أقام الحجة، وكشف الباطل، ولا يزيغ عنه إلا مكابر. كما يُعَلِّم هذا المنهج الرباني كيف ينهج المسلم بمنهج وطرائق الاستدلال، وإقامة الحجج على أهل الباطل. كما يفتح الأذهان على العلم الحقيقي، ويرتقي بعقول أتباعه إلى مصاف أولي الألباب، وذلك بما ينهلون من رفعة العلم وعلوه.

ثم يوجه الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يسألهم هذا السؤال ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴾ اسألهم أيها الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذا المتزعم للمقالة الفاسدة، والحكم الباطل. وهو سؤال تهكم وازدراء بهم. فإن الله تعالى ليس في حاجة لسؤالهم وهو العليم الخبير. ولكن تصغيراً وتهكماً لأفكارهم التي يجب أن يتركوها ويقلعوا عنها إلى الحق الواضح المبين.

ثم ينتقل بهم السياق الكريم والبيان العظيم في تدرج عميق إلى سؤال واستفهام آخر، ليقررهم ببطلان ما هم عليه. فقال تبارك وتعالى ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴾ أم أن لهؤلاء آلهة مشاركة لله تعالى، فيفعلون ويشهدون لهم بصدق وسلامة ما هم عليه من الباطل، فيتكفل لهم شركاؤهم بضمان وصدق وسلامة ما يقولون. فإن كان الأمر كذلك فعليهم بإحضارهم ﴿ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴾ فليأتوا بهم لينطقوا بما قالوه لهم إن كانوا صادقين. وفي هذا اثبات أنهم اخترعوا وافتروا ذلك من عند أنفسهم. فجعلوا لله تعالى شركاء من الجمادات التي لا تنطق بشيء، ولا تستطيع أن تكذب على الله تعالى فيما لو أنطقها الله تعالى بقدرته. وفي هذا بيان لهم بأنهم قد افتروا على ربهم سبحانه وتعالى الكذب حتى أنهم اخترعوا الشركاء. مما يدل على تماديهم في الباطل إلى أقصى ما يكون. وبهذا البيان الكريم العظيم فقد دحرهم الله تعالى، وحصرهم في الاعتراف بجهلهم الذي يُلزمهم أن يُطيعوا ويمتثلوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم بعد بيان الله تعالى لمحاجته للجاحدين القائلين بالكذب والبهتان، يوضح ويبين جَلَّ جلاله ذلك اليوم الذي يحصل فيه الحساب والجزاء، والذي هو يوم القيامة، يوم يسجد لله عَزَّ وجل أهل الإيمان، ويعجز فيه أهل الكفر والنفاق والرياء. فيقول تبارك وتعالى ﴿ يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴾ ذلك اليوم الشديد الهول من أحداث يوم القيامة. حيث يُؤمر الناس جميعاً بالسجود، فيسجد أهل الإيمان، وتتصلب ظهور الكفرة والمنافقين وأهل الرياء، فلا يستطيعون ذلك، لأنهم لم يكونوا في الدنيا من الساجدين لربهم بالطاعة والامتثال.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يوم تكشف القيامة عن شدة شديدة، والعرب تقول: كشف هذا الأمر عن ساق إذا صار إلى شدة[١] قال الواحدي: قال المفسرون في قوله تعالى ﴿ عَن سَاقٖ ﴾ عن شدة من الأمر[٢] قال ابن قتيبة: وأصل هذا أن الرجل إذا وقع في أمر عظيم، يحتاج إلى معاناة والجد فيه، شَمَّرَ عن ساقه، فاستعيرت الساق في موضع الشدة[٣] وقال أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما: حين يُكشف الأمر، وتبدوا الأعمال، وكشفه دخول الآخرة، وكشف الأمر عنه، وذكر كذلك: هو الأمر الشديد المفظع من الهول يوم القيامة[٤] وفي ذلك اليوم يمتنع أهل الكفر والنفاق والرياء عن السجود، حيث تتصلب ظهورهم ﴿ وَيُدۡعَوۡنَ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٩٦/٢٣)
(٢) الشوكاني، فتح القدير (٢٧٥/٥)
(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧٥/٨)
(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨٨/٢٣)

﴿ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ يؤمر الناس جميعاً بالسجود، فيسجد أهل الإيمان، وتتصلب ظهور الكفرة والمنافقين وأهل الرياء، فلا يستطيعون ذلك، لأنهم لم يكونوا في الدنيا من الساجدين لربهم بالطاعة والامتثال، وأداء الصلاة.

وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: قيل ساق الشيء: أصله وقوامه، كساق الشجرة وساق الإنسان. أي: يوم يُكشف عن ساق الأمر، فتظهر حقائقه، وقيل يُكشف عن ساق جهنم، وقيل عن ساق العرش، وقيل هو عبارة عن القرب. وقيل يكشف الرب عن نوره[1] قد ورد في الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم (يَكشِفُ ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طَبَقا واحداً) [2] فمن غزارة مبنى السياق الكريم أنه جمع الشدة والهول وأحوالها في ذلك اليوم، وما يكون فيه قبل أن يكون، وكأن الْمُخَاطَبين يعاينون ويعيشون ذلك اليوم. مما يفيد التحذير لكل منحرف عن الحق، والتطمين لمن هو على هدى الله تعالى. وهذا من عدل الله تعالى في أحكامه، وكذلك من رحمته في توجيه عباده سبحانه وتعالى أن حذرهم مما هو قادم. فنسأل الله تعالى العون والتوفيق لما يحبه ويرضاه، وحُسن الخاتمة لنا ولجميع المسلمين.

ثم يصف سبحانه وتعالى حال هؤلاء الذين تصلبت ظهورهم عن إمكانية السجود، عقاباً لامتناعهم عن السجود لله تعالى في الدنيا. فقال عَزَّ وجل ﴿ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ﴾ أي: أن أبصارهم يوم القيامة منكسرة ذليلة، وقد ورد وصف هيئتها بدلالة الخشوع ﴿ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ ﴾ أي: منكسرة، ومتطأطئة إلى أسفل، وقد اعتراها الخوف والمهانة ﴿ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌ ﴾ أي: تغشاهم المهانة. والإرهاق دليل على المبالغة فيما هم فيه من الذلة التي وصلت بهم إلى غايتها ومنتهاها.

ثم علل تبارك وتعالى سبب ذلك، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ﴾ فقد كان حالهم في الحياة الدنيا أنهم ﴿ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ ﴾ يُدعون إلى الصلاة التي نعتها الله تبارك وتعالى بأعظم أركان التذلل فيها، وهو السجود، لِمَا في دلالة السجود من الخضوع والتذلل لله سبحانه وتعالى ﴿ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ﴾ وهم في عافية في الدنيا. فقد كانوا معافون، سالمون من كل مانع يمنعهم من أن يسجدوا لله ربهم سبحانه وتعالى ويطيعوه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الْكُفَّار، كانوا يُدْعَون في الدنيا وهم آمنون، فاليوم يدعوهم وهم

(١) الشوكاني، فتح القدير (٥/٢٧٥)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٤٩١٩)

خائفون[١] فليس حالهم في الدنيا كحالهم اليوم مما هي عليه أصلابهم من التصلب الذي يمنعهم من السجود عقوبة وإهانة لهم. وفي هذا إنذار لمن ترك الصلاة وتهاون فيها. وإنذار لكل من كفر وتجبر، فإن كفره وتعاليه في الدنيا هو إهانة له في الآخرة.

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

ثم بعد بيان الله تعالى لحال المستهزئين المكذبين المتمنعين عن الامتثال لطاعة الله تعالى، بالاستجابة للرسول صلى الله عليه وسلم، ينتقل الخطاب إلى النبي عليه الصلاة والسلام، لمعالجة الشأن في أمر هؤلاء المكذبين، وذلك بتوجيهه صلى الله عليه وسلم بأن لا يشغل خاطره وفكره بهؤلاء المكذبين، فاترك شأنهم لربك العزيز الحكيم. فقال الله تعالى ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فاترك لربك سبحانه وتعالى أمر من يكذب بهذا القرآن العظيم، فإنه سيتولى أمرهم وعقابهم، بما يفيد قوة التهديد من الله العزيز الحكيم ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾ فاترك الأمر والشأن لله عَزَّ في علاه، فقد كفيناك أمرهم أيها الرسول صلى الله عليه وسلم، وسوف نتولى تدبير عقوبتهم. مما يفيد ويدل على عظيم ما سينالهم من العقوبة والنكال. فقد أعطت عظيم التهديد للمكذبين بالقرآن الكريم.

وقد سَمّى الله تعالى القرآن هنا بالحديث، لأن آياته تحدثهم بما يجب عليهم، وبخطاب في غاية من الترغيب، والترهيب، والمواعظ، وقصص الأمم السابقة. ثم يخبر الله تعالى بعقوبته لهم، التي تحمل التأني، والاستدراج الذي سَيُسقطهم في أشد العذاب والنكال. فقال تعالى ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي: سنأخذهم شيئاً فشيئاً في غفلتهم التي هم فيها ساهون إلى ما يُوقعهم في العذاب ﴿ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ من حيث لا يتوقعون أنه استدراج لهم. بما يفيد المفاجأة في السقوط. فإنهم مُستَدرَجُون إلى ما يكرهون، فيتوهمون أنه خير لهم، بينما عاقبته شر لهم. أي: فإن عقوبتهم هي: أن الله تعالى يأخذهم بالتدرج من حيث لا

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/١٩٧)

يعلمون ثم المفاجأة التي تكسرهم وتهلكهم بالأخذ الوبيل. أي: أنه استدراج لهم، فقد يفتح لهم أبواباً مما يعتقدون أنه خير لهم، فينالون به حين ذلك ما يستوجب لهم قوة النكال، وقوة المهانة، وقوة العذاب. كما قال تعالى في سورة آل عمران ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ فإن الله تعالى عليم حليم، وشديد العقاب.

فلا يعتقد ويظن هؤلاء الكفرة أن إملاء الله تعالى لهم، بإطالة أعمارهم وتأخير آجالهم وسلامتهم من القتل، هو من باب الخير الذي لحق بهم، بل لله حكمة بالغة في ذلك، كما بينته الآية الكريمة ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ فالحكمة من الإمهال هي: ليزدادوا بذلك التأجيل مزيداً من المعاصي الآثمة التي تستوجب لصاحبها العقوبة بالعذاب المهين في الدنيا، والمهانة الأعظم في الآخرة، فلم يحصر سبحانه وتعالى العذاب في زمن محدد، ليكون في الآخرة، أو في الدنيا والآخرة. ليزداد بذلك التهويل إثارة الترقب منهم، وقوة التخوف والقلق.

مما يبين للمؤمنين حكمة الله تعالى فيما يَمُدُّ به الكافرين من الآجال والعطاء والغلبة أحياناً، فإنه ليس محبة لهم، ولا نقصاً في حق المؤمنين، وإنما ليزدادوا إثماً بكفرهم، جَرَّاء مسارعتهم نحو التوغل فيه، ومعاداتهم أمر الله تعالى بمحاربته، فيجازيهم بما يستحقون من العقوبة المتوافقة مع جرمهم العظيم. وقد يكون ذلك في الدنيا والآخرة. ومن فوائده كذلك: فليحذر المؤمن من المعصية، والتمادي فيها، فإن الله تعالى قد يمهل حتى إذا أخذ العبد بذنبه أوجعه به. فإن الله تعالى قد يمهل ولا يهمل.

وكذلك يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يتمهل معهم بالصبر، لأن العاقبة والدائرة عليهم.

فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ فأمهلهم وتريث عليهم ليزدادوا إثماً ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ فإن صفة كيد الله تعالى الذي هو مَكْرُهُ، قوي شديد، مما يفيد الحذر من المعصية ومن مغبتها، فإن الله تعالى يمهل ويمد للظالم حتى يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

ثم يخبر الله تعالى بأن حالهم في الامتناع عن دينه كحال من تُطَالِبُه يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم بأجرة وثمن يلزم أن يدفعه لقاء قبوله هذا الدين. فقال عَزَّ وجل ﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾

فيوجه سبحانه وتعالى الخطاب لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا ﴾ فهل تطلب منهم ثمناً أيها الرسول على قبول دعوتك لهم؟ فإن حالهم مماثل لحال مَن طُلب منهم ثمناً على قبول هذا الدين. فإن حقيقتك أيها النبي أنك لا تطلب منهم مالاً يثقلهم ويبعدهم عنك. فكيف لو طلبت منهم مالاً؟ فهو سؤال استنكار لحالهم، وتوبيخ وتقريع لهم على حال تمنعهم عن قبول دين الله تعالى، بما يفيد إظهار مبالغتهم في الامتناع أمام أمر واضح

بالآيات والحجج والبراهين. فكأن امتناعهم بناء على طلب أموالهم، وبالتالي ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ فهم من كثرة ما طُلِب منهم من المال ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ قد أثقلهم، فلا يستطيعون دفعه. فحالهم مماثل لمن طُلب منه الأجر على ذلك وهو ﴿مِّن مَّغْرَمٍ﴾ أي: مما فُرِض عليهم أن يدفعوه من أموالهم عِوضاً، فهم من كثرته ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ أي: من شدة حَمالته، لا يستطيعون دفعه. فامتنعوا عن دين الله تعالى لِثِقَل ما طُلِب منهم من الأجر. وكأن حالهم لولا هذا المطلب لدخلوا في دين الله تعالى. بما يفيد: أن هذا الدين يمنح ويعطي، ولا يأخذ على مَن قبل به ثمناً يدفعه. ولو طُلِب ثمناً لكان جديراً به أن يدفع فيه. بما يبين شدة مبالغتهم في الامتناع. وبهذا قد فسر الله تعالى قوة امتناعهم بأدق الأمثلة التي تكشف شدة استكبارهم على الحق الواضح المبين.

وقد استهل السياق بيانه بحرف ﴿أَمْ﴾ الذي أفاد وأعطى دلالة الاستفهام الإنكاري لفرضية أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد طلب منهم مالاً فأثقلهم. وفي ذلك تحليل لأوجه ما هم عليه من الطغيان تجاه الحق الواضح المبين. وفي هذا التحليل لأوجه ما يكون من الموانع دليل على عمق القرآن الكريم في أساليبه، ومحاوراته، وفي تفتيت ما زعموا من الافتراء؛ حتى الظنون والأوهام، وما قد يدور في القلوب والنفوس من الخفايا، وذلك من أجل إظهار بطلان كفر الكافرين، وأنه لا شيء يمنعهم عن دين الله تعالى إلا طغيانهم وشهواتهم، والحسد والاستكبار.

ويستمر البيان الكريم في إثارة العقول نحو الأدلة والبراهين التي تخاطب العقل بما يعقل من البراهين والحجج. فيقول عَزَّ وجل ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أم أنهم امتلكوا علم الغيب فيكتبونه كما يشاؤون. سؤال استنكار، يُبطل به سبحانه وتعالى إنكارهم للنبوة والقرآن ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ فهل رفضهم لنبوة رسولنا، وللقرآن العظيم بناء على امتلاكهم الغيب؟ وأنه مُوكَل لهم. فحالهم هو حال مَن كأن الغيب في أيديهم، فيكتبونه كما يشاؤون، ويختارون ما يشاؤون. ففيه إظهار لتصرفاتهم وتماديهم ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ فهل رَفْضهم لنبوة رسولنا صلى الله عليه وسلم، وللقرآن هو بناء على امتلاكهم الغيب؟ سؤال يقرر به سبحانه وتعالى بُعدهم عن ذلك، وعجزهم عنه، غير أن حال تصرفاتهم كمن كان لهم الغيب مُلكاً يتصرفون فيه كما يشاؤون. فيختارون ما يريدون، ويتركون ما يشاؤون.

لتكون النتيجة: إن كنتم لا تملكون الغيب فعلى أي أساس تنكرون وتردون حجج الله الواضحات البينات؟ والتي تُصَدِّقُهَا عُقُولُكم وقلوبكم، وتنفيها ألسنتكم، فألسنتهم تنافي ما في قلوبهم، وذلك لقوة الحسد والطغيان والتعالي والتكبر الذي يملونه. كما قال الله تعالى في سورة الأنعام ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ

ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾ وكما قال تعالى في سورة النمل ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ مما يفيد وجوب الاستسلام لله تعالى وللحجج والبراهين التي أنزلها الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، والتي منها القرآن العظيم، والتجرد من الحسد والكبرياء، فإنه يمنع صاحبه من الإذعان للحق، فينحرم من الخير.

ثم يوجه الله تبارك وتعالى نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم إلى الصبر. فيقول عَزَّ وجل ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴾ فاصبر أيها النبي على قضاء ربك الذي قد قضى وحكم به ﴿ فَٱصۡبِرۡ ﴾ والصبر كما قال ابن قيم الجوزية: أن الصبر نقيض الجزع، وهو حبس النفس عن الجزع، والتصبر، وتَكَلُّف الصبر. وقال عمر بن عثمان المكي: هو: الثبات مع الله، وتَلَقّي بلائه بالرحب والدعة[1] وأما موطن الصبر وغايته فهو ﴿ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾ أي: ما قضى وحكم به ربك سبحانه وتعالى، مما كلفك به من مهمة شرف الرسالة، وما تكابده فيها مع من تدعوهم، وما سيحكم به لك وعليهم. وهو النصر والظفر للرسول صلى الله عليه وسلم، والجنة في الآخرة، والهزيمة لأهل الكفر، والنار في الآخرة. مما يعلم المؤمن والداعية والمرشد والناصح والمعلم أن يصبر على صعوبة مهنته، وعلى مناكفة غيره له، حتى يحكم الله تعالى بما يقضيه من الظفر والفوز والنجاح، وعظيم الأجر والثواب.

ثم بعد أمره سبحانه وتعالى بالصبر، أعقبه بالنهي عن مماثلة نبي الله تعالى يونس بن مَتَّى عليه الصلاة والسلام ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴾ فلا تكن كمن جعلناه يصاحب الحوت، فيمكث في بطنه حتى أخرجناه منه ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ ﴾ وذلك لعدم صبره على قومه. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: الذي حبسه في بطنه، وهو يونس بن مَتَّى عليه الصلاة والسلام. فيعاقبك ربك على تركك تبليغ ذلك، كما عاقبَهُ فحبَسه في بطنه[2] وهذا الحبس في بطن الحوت آية من آيات الله تعالى، الموضحة لكمال قدرته عَزَّ وجل، وكمال تدبيره. وأن المعصية والتراخي في التكاليف لا تمنع من معاقبته سبحانه وتعالى لمن اصطفاه، ولا تزيل عنه الاصطفاء، فإن الله تعالى خبير بمن يصطفي. كما يفيد هذا أنه حتى الأخيار قد يحصل منهم الخطأ، وقد يعاقبهم الله تعالى، ولكنهم باقون على منزلتهم طالما أنهم يتوبون ويتقون ويطيعون الله تعالى. كما أفاد هذا أهمية التحذير، والوعظ للإنسان، مهما علت رتبته ومنزلته. فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) ابن قيم الجوزية، عدة الصابرين (١٧)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/١٩٩)

يحذره ربه تبارك وتعالى. فلا يتكبر الإنسان على المواعظ، بل يلتمسها، وخاصة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. حتى تتعلم الأمة هذا الأمر، وتطبقه، فإنه لو كان رسولكم صلى الله عليه وسلم حصل منه ما ينافي مرادنا لتعاملنا معه بالعقوبة، ليعطي البيان بذلك قوة الوعظ للمؤمنين، ووجوب الالتزام بما وعظ سبحانه وتعالى.

ثم يقول سبحانه وتعالى عن اتعاظ نبي الله ورسوله يونس عليه الصلاة والسلام ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ إذ نادى ربه سبحانه وتعالى وهو مغموم، قد كظمه الغيظ وأثقله، كما قال تعالى عنه في سورة الأنبياء ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: فلما صار في جوف ظلمة بطن الحوت، أخذ يتضرع إلى الله تعالى، فبدأ بتقرير الألوهية لله تعالى، فتاب الله تعالى عليه، وقبل تضرعه.

ثم يخبر جَلَّ جلاله بإنعامه على رسوله ونبيه يونس عليه الصلاة والسلام، بعد أن قَبِل تضرعه، فتاب عليه برحمته وكرمه سبحانه وتعالى. فقال تعالى ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ فلولا أن نعمة الله تعالى قد تداركت نبيه يونس عليه السلام بإخراجه من بطن الحوت، بعد تضرعه وتوبته بقوله ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فلولا ذلك ﴿لَنُبِذَ﴾ أي: لألقي وطُرِح من بطن الحوت ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ أي: على وجه الأرض الخالية من النباتات ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ وهو في حال من الذم واللوم بالذنب الذي أذنبه، فَيُطْرَد من رحمة ربه سبحانه وتعالى. مما يبين أنه مهما عظم الذنب فإن الله تعالى يغفر ويتجاوز عمن تاب وأناب إلى ربه سبحانه وتعالى، وأن الله عَزَّ وجل لا يقبل المعصية من أي إنسان، مهما كانت منزلته، فليحافظ العبد على الطاعة لله تعالى.

فمن رحمته تبارك وتعالى أن قَبِل توبة رسوله يونس عليه السلام، فقال تعالى ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فقد قَبِل الله تعالى توبته، وقابلها بأمرين كريمين: الأول: هو ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ والاجتباء هو الاستخلاص والاصطفاء. وخَلَّصَهُ مما كان منه. بل من إكرامه له سبحانه وتعالى أن أظهر عَزَّ وجل عنايته له بربوبيته له ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ والأمر الثاني: هو ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وهم الذين يؤدون المأمورات، ويجتنبون المنهيات. فاستمرت النبوة له، ووفقه الله تعالى وسدده حتى أصبح واحداً من عباده الصالحين، أي: المطيعين له عَزَّ وجل، فأصبح صالحاً في نفسه ولغيره. وقد سبق ذلك حرف ﴿مِنَ﴾ ليفيد التبعيض، بأنه واحد من العباد المؤمنين، ليدل على كثرتهم ولله الحمد.

ثم يختم الله تعالى سورة القلم ببيان شدة حَنق وبُغض المشركين للرسول صلى الله عليه وسلم، فوصف الله تعالى ذلك بأدق الأوصاف المبينة والموضحة لشدة كراهتهم لهذا الدين، وللرسول صلى الله عليه وسلم، بالرغم من عظيم الآيات والحجج، وكذلك كريم تعامله عليه الصلاة والسلام معهم، ومعرفتهم به منذ طفولته، باستقامته وكريم أخلاقه، وأمانته وصدقه. ولكن الكبرياء والحسد، نعوذ بالله تعالى منه. فقال الله تعالى ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴾ لقد بلغ بالذين كفروا في حقك وشأنك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم أن يُسقطوك بأبصارهم، من قوة وشدة كراهتهم لِمَا تدعوهم إليه من الدين. وقد ورد البيان بدلالة ﴿ وَإِن يَكَادُ ﴾ التي تفيد المبالغة في المقاربة التي وصلت بهؤلاء ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي: المشركين الذين يمتنعون عن التصديق، والدخول في الإسلام، ويحملون البغض لهذا الدين وللرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ لَيُزْلِقُونَكَ ﴾ أي: ليزيلوك ويُزهِقُوك ويُنَحُّوك، ويصرفوك بتحريك وجهتك وإزالتك عن المكانة والمنزلة التي أنت عليها من تبليغ رسالة الله تعالى للناس. وأن مصدر هذا المراد بك قد ظهر على أعينهم ﴿ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ أي: أن نظراتهم لك من شدة العداوة تكاد تزيل الأقدام، فيسقط صاحبها. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: وهذا مستعمل في كلام العرب، يقول القائل: نظر إليَّ فلان نَظَرَاً كاد أن يصرعني[1] بما يفيد أنهم وصلوا إلى درجة المبالغة في إرادة إزالتك وإزهاقك عما أنت عليه، فإذا رأوك أرادوا لو تَحَقَّقَ مبتغاهم؛ بما يظهر على أعينهم التي تحمل أقصى شدة الحسد والبغضاء.

ثم يبين جَلَّ جلاله أن اشتداد ذلك عليهم هو ﴿ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ ﴾ أي: وقت سماعهم القرآن العظيم منك، بما يفيد شدة كراهتهم لسماع القرآن، لما فيه من الحق، والقوة المؤثرة على من سمعه منهم. ثم يحاولون صرف قلوبهم وقلوب غيرهم بأن يصفوك وينعتوك بالجنون ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴾ فينسبون ما تتلوه إلى الجنون، ليشمل وصفهم الرسول صلى الله عليه وسلم، ويشمل الطعن في آيات القرآن العظيم. وهذا الطعن هو مخالف لما يعرفونه من الرسول صلى الله عليه وسلم ومن القرآن الكريم، فقلوبهم لا تنكر ذلك، خاصة وأنهم عرب أقحاح، ولكن ليتقووا بذلك قبول الحق، ويصرفوا الناس عنه، نتيجة الحسد والكبر. مما يبين أن من أقوى موانع قبول الحق في أي مجال هو الحسد والاستكبار. فإذا كان قد حصل هذا مع كلام الله تعالى، ومع رسوله صلى الله عليه وسلم، المعروف بمكارم الأخلاق، فكيف بمن هم دونه من الناس؟ وكيف في الأمور الأخرى التي لا يترتب عليها كفر، ولا عقاب؟ مما يفيد الحذر من ذلك، وأهمية ترويض النفس وتربيتها على قبول الحق، والأخذ به، مهما كان قائله.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧٧/٨)

ثم يرد الله تعالى عليهم، بإبطال قولهم، واتهامهم الكاذب، من خلال تزكية رسوله صلى الله عليه وسلم، وتزكية جميع ما نزل من الوحي، وعلى رأس ذلك القرآن الكريم. فقال تعالى ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ فما هذا القرآن الكريم العظيم، وهذا الوحي من السنة النبوية المطهرة، وما يدعوهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ من الله تعالى. وخص العالمين ﴿ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ليشمل جميع المكلفين بهذا الدين، من الإنس والجن. وجملة قوله تعالى ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ تفيد القصر والحصر على أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن وغيره ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ أي: ليس إلا مواعظ وإرشاد، وأحكام، وأخلاق، وآداب، وشريعة كاملة، للعالمين أجمعين، لأنها تذكرهم بما يجب عليهم، فينتفي بذلك كل ما هو خارج عن الذكر، ومن كل ما يظنون أو يفترون من الكذب. فهو تصحيح للناس إلى قيام الساعة. فليس القرآن إلا مُذكِّر بالحق، وبما يجب على العالمين من ربهم سبحانه وتعالى. وأن من أراد أن يعرف ويتعلم ويتذكر فعليه بالقرآن العظيم. وبالتالي فإن الرسول صلى الله عليه وسلم ما هو إلا مُذكِّر للعالمين بما أرسله الله تعالى به من الحجج والبراهين لجميع العالمين.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة القلم. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.